تحت ظلال الشجر

لِلكاتب الانجليزي « فرنسيس بيج »
بقلم الأستاذ فؤاد الطوخي

كوسارد يروى القصة ... وكوسارد رجل طويل القامة ، جميل الوجه ، مفتول الساعدين ، عريض المنكبين ، ينبعث من ناظريه بريق يخلب اللب ، ويجرى فى عروقه دم هندى ، ولقد جاء مع والده إلى إفريقيا وبصحبتهما واحد ومائة من الهنود ليناقس بهم عملا يقوم به واحد ومائة من الاغريق

ورحل كوسارد إلى انجلترا ، وأقام فيها ردحا من الزمن ثم رجع إلى افريقيا وأحاط به يوما جماعة من الهنود وتحدثوا إليه فى مختلف المسائل ثم نهض ملجان وسأله أن يطالعهم ببعض المغامرات ، وألح فى الطلب وألحف ، وأهاب به إخوانه أن يسكت ، وأوقفوا الجلبة حتى ينصتوا فى هدوء لقصة كوسارد

سأتلو على مسامعكم قصة لا يجد فيها ملجان المثل الأعلى للقصة التى تصبو نفسه إليها ولكنها شائقة ممتعة ، وسأذهب بكم إلى منطقة من الأرض جرداء موحشة ليس فيها إنس ولا جان ، فتبصرون عند الأفق مزارع خضراء ، تتخللها حدائق غناء ، وتسيرون وعلى يمينكم فلاة تنتهى بكم إلى غدير صاخب ، وعلى يساركم جبال زرقاء خلو من الثلوج ، فالوقت صيف ، والشمس شديدة وهاجة تحرق الجلد وتذيب الثلج وقد آذنت بالغروب ، وبدأ الليل يرخى سدوله . فتقفون صامتين خاشعين بعد ما انمحت آثار الحياة وضجيج الحركة ، ولا يبقى أمامكم إلا جلال الطبيعة وروعتها ، فلا يسعكم إلا التسبيح لله على ما خلق وأبدع ثم تطيف بكم غلالة سحرية فتستحيلون إلى كائنات صماء كقطع الأحجار التى تكتنفكم ، وتغيب الشمس الافريقيه وراء الأفق فتغيبون عن الوجود ، وتكادون تفنون فيما حولكم من نجاد ووهاد ، وإذا البحر من بعيد يكشف عن صفحة من لجين ، وإذا الجبال تتراءى منحدراتها بما يكسوها من الورد الفاني ، وإذا السماء فوقنا تتيه بزرقتها الصافية الأديم ، وتوغل فى الارتفاع طبقات بعضها فوق بعض ، وتحسون بالأرض الدافئة من تحتكم تخمد حرارتها شيئاً فشيئا ، وتومض الآفاق بقبس من الوهج الأحمر وهى تتلقى آخر أشعة من ضوء الشمس المنحسر ، ثم تنبو عنكم الغشية فتستيقظون وتعودون إلى الحياة ، وتعدون وتمرحون وتهبطون وتعلون ؛ وإذا بالليل يهيمن على الطبيعة ويمد ظلاله فوق أرجائها ، فترحلون إلى كوكب جديد . فها هى ذى صفحة السماء تتلألأ فى جنباتها شموع النجوم ، وها هى سفوح الجبال يلمع وراءها بريق أبيض يبدد حلكة السواد وظلمات الليل البهيم ، ويزداد الضوء لمعانا وظهورا حتى يتربع القمر فى كبد السماء وتهب نسمات الليل فتنعش أرواحكم بما تحمل من عبير الورد وأريج الأزهار .. تلك الطبيعة برمتها ، نجومها وقمرها وبحارها وجبالها إنما هى ملك أيمانكم .

وها كم قصتى ، هى قصة رجل وامرأة ... وامرأة أخرى . وسأنتقل بكم إلى مكانهما فى سفح الجبل حيث صعدا . . أما الرجل فقوى البنية ممتلىء الجسم مليح الوجه ، هولاندى النبت . . والمرأة فى مقتبل العمر وريعان الصبا وفرط الحسن والجمال .

وقف كلاهما على سفح الجبل ، وأشعل الرجل ناراً فى كهف مخضوضل الجوانب ، وكانت المرأة

جافة الخلق ، فحمل الرجل فى كفيه ماء من ينبوع وتقدم إليها فروت ظمأها ثم وضعت رأسها فوق يديه كأنها تحاول إخفاء نفسها عنه ، وكان صدرها مفعماً بالشجون والخواطر المحتبسة ، فأطلقت لها العنان وطفقت تبكى والدموع تنهمر من عينيها فوق يديه فهدأ روعها وطيب خاطرها وسألها :

— ماذا يبكيك ياحبيبتي . . أتخافين ؟

— كلا ، كلا . لست خائفة

وظهرت فى خلال دموعها ابتسامة ، وداعبت شعرها ، ونظرت إليه بدلال ورشاقة ، ثم عانقته وعادت فنفرت منه وابتعدت عنه ، وقالت :

— هذه مخاطرة مروعة

— ما الحب إلا مخاطرات

— ولكنى كذبت فى قولى فى الفندق ، ومنذ شهرين فقط لم أكن أعرفك وأحبك ، ولا أدرى كيف جرى ذلك ، ولم جئت إلى هنا ؟ وماذا يظن والداى الآن ؟ هل يظنان أننى أعيش على سفح جبل ؟ ومع من ؟ مع رجل متزوج ويستحيل أن يطلق زوجته . . ولماذا لم أعرفك قبل زواجك ؟ !

— أنظرى ياعزيزتى ! لقد صنعت القهوة ، فهيا نطعم طعام العشاء .

وجلسا يشربان القهوة ، وكانت لذيذة . وخرجت الحشرات من ثقوبها تنعت ، وتمايلت الأشجار ، واستوت النجوم الوضاءة فى السماء وهبت نسمات فيحاء وساورتها الهموم ، وقالت بصوت غير مسموع لنفسها :

— هى أن أختى جاءت إلى هنا . . هى أن أحد الناس رآنى . . هى أن زوجته تفقدته فلم تجده وحضرت تبحث عنه . . هى . . هى

وداعب شعرها فشمرت بيده ، وتملكها السرور واتكأت عليه وقالت :

— دعهم يذهبون إلى حيث يشاءون . . فما شأنهم بنا . . نحن فى إفريقيا المحبوبة الرائعة . . دعهم يذهبون فى سبيل هذه الليلة الساحرة ، وفى سبيل الرجل الوحيد الذى أحبه . . أحبه .

وكانت ولهانة مفتونة به إلى حد الجنون ، تذيبها لمسة ، وتروعها نظرة فدنياها أحلام ، وجسدها لهيب .

وتمذر عليها أن تحدثه فى أمر ، إذ كانت زفراتها تتصاعد تباعاً بقوة من صدرها فأدناها منه وداعب شعرها وهمس : — أنت لاتحبيننى !

— كلا ! إنى أحبك

فقبلها فى عينيها وفمها وعانقها ، فغشيتها غبطة عميقة من الهيام ، فمدت إلى وجهه وطبعت عليه قبلة ضخمة وعادها مايشبه الأحلام ، ثم تنبهت فأفاقت ورجعت إلى صوابها ، ومرت بخاطرها صورة من ذكريات ماضية فوجت وخجلت ووجلت ، وامتد خيالها إلى أبيها ، فرأته يدخن غليونه ، وإلى أمها فوجدتها تحيك لها معطفاً ، فنفرت وتباعدت عنه وأدارت وجهها إلى ناحية أخرى ، فدهش وسار نحوها يستعطفها ، ثم ذهب إلى الكهف وأخذ يحرك النار المشتعلة ، أما هى فأنشأت ترقب الأفق والسماء ، وإذا بكوكبة جديدة من النجوم تبزغ فى الجو وتسيطر على سائر الاجرام السماوية فتزيدها رواء وبهاء ، وأنصتت فسمعت خشخشة ورأت شيئاً يتحرك .. شيئاً مظلماً غريباً فذعرت وشهقت ونهضت ، فأبصرت معبودها واقفاً ممسكاً بمعصمه فتمتمت

— حية . . ؟ لا . . ليست حية

— لا . . بل هى حية حقاً

— لم أر شيئاً كهذا فى حياتى . . لا . . رأيت مايشبهها فى حدائق الحيوانات .

وساد سكون رهيب . . ثم قطعته قائلة

— ماذا تصنع ؟ بل ماذا أفعل . . وارتجفت وحارت فى أمرها ، ودقت يداها بيد ، وخارت قواها وهالها الموقف حتى صمتت

وبدأ يمتص معصمه فأقبلت نحوه فمنعها ، ثم

انهالت على يده الجريحة وأمطرتها وابلا من القبل وهى ولهى خائفة دامية القلب فقال لها :

— إذهبي إلى الكوخ القائم فى أسفل الجبل ، واطلبي المونة من صاحبه فعنده ترياق ودواء .

فمشت مسرعة فى الممر فى طريقها إليه، ولكنها ما لبثت أن توقفت وفكرت فى افتضاح أمرها لأن الرجل سيعلم كاسيعلم أولاده، ثم ماذا يكون حالهما مع أبيها وأمها، فعادت واسترسلت فى التفكير فتوهمت أن الرجل سيموت... سيموت فى الكهف، وستبقى وحيدة على الجبل حتى مطلع الفجر ، فصرخت صرخة مدوية فزع منها الطيور فى أوكارها فخرجت تحوم حول الجبل . أما هو فخاطبها فى لهجة حاسمة

— إما أنك تحبيننى أولا . لو كنت تحبيننى لذهبت توا إلى الكوخ

فصاحت وهرعت نحوه وعانقته وقبلته بوله وقالت:

— إني ذاهبة .. إنى ذاهبة .. وأخذت تعدو فى الممر فناداها فوقفت :

— تعالى

— كلا ، سأذهب لئلا تضيع الفرصة

— تعالى .. تعالى .. فقد كنت أعالج النار عند ما اقتربت منك وهرولت إليها فوجدتها من النوع الذى لا يؤذى ، فتركتها تمضى فى طريقها ، وقد اخترعت فكرة اللذعة لأختبر مبلغ حبك لى ، فأيقنت أنك تحبيننى حقا .. فتعالى .. تعالى إلى .. وضمها وقبلها قبلات حارة فى شغف وشوق .

أما هى فاسترجعت ونفرت ومرت على وجهها سحابة من الغضب والسخط والتوت أصابعها من شدة الحنق ثم واجهته فى كبرياء وأنفة

— إنى أكرهك .. أكرهك لخداعك إياى أيها الوحش المفترس . واستدارت وأخذت تهبط الجبل غير مكترثة بصيحاته وتوسلاته، فوثبت وانزلقت وتدحرجت فوق الأحجار حتى بلغت الأرض وسارت على غير هدى فى ليل إفريقيا المظلم وهنا قاطعه ملجان:

— يلوح لى أن هذا الهولندى ممن يأخذون من الأشياء أطيبها لحسب. فاعترضه كوسارد :

— كلا أنت مخطئ

— يظهر أنك تزوجتها يا كوسارد فانى أعرف نهاية أمثال هذه الفتيات

— كلا، لم أتزوجها! وهى تعيش عيشة رغدة

— ولكن أظنك أخبرتنا أنها غضبت وتركته فى الجبل

— نعم ولكنه لحق بها

وعرج على مركبة بجواره ولم تكن تتوقع مجيئه بل أخذت تسير عند انبثاق الفجر هائمة على وجهها دون مال أو متاع، حيرى لا تلوى على شىء وفى رأسها حلم بفندق كانت نازلة فيه وقدماها تسوقها إليه

فأشاحت بوجهها عنه لأنها كانت غاضبة حانقة، وتحدث إليها فلم تجب ، وأمرها أن تبقى فى الفندق فأذعنت للأمر على كره منها إذ لم يكن لديها سبيل آخر ، وعاد هو إلى الجبل وقضى سحابة يومه يفكر ، ويفكر طويلا ، فعقد النية على طلاق زوجته . . تلك الزوجة الفاتنة المرحة التى هجرها ولكنها لم تكن لتأسف على تركه لو نالت حقوقها المالية كاملة . ثم كتب خطاب استقالة من وظيفته ، وأخذ يحصر أملاكه ليبيعها ، ويجمع أمواله من المصارف استعدادا للرحيل مع معبودته إلى أرض أخرى

وفى تلك الليلة كانت زوجته فى مركبتها وبجانبها رجل ثمل ، وانطلقت تعدو بهما فى نفس الطريق المؤدية إلى الجبل، وأضيئت أنوار السيارة، فلمح هرمنس زوجته بطرف عينه فخجل ولكنه ابتسم وقال :

لقد أصبحت الآن أختى.. أختى الصغيرة الظريفة.. غادة فاتنة هيفاء .. أليس كذلك ؟ فزار الطرحى